ISSN : 2414-3200

Uttara University Islamic Studies Journal

Volume-1 | Number-1 | January-June 2016

Uttara University
Bangladesh

Uttara University Islamic Studies Journal
Volume-1, Number-1, January-June 2016
ISSN : 2414-3200

أهداف التصوف الإسلامي وآثاره في حياة الإنسان

محمد شهيد الإسلام
Muhammad Shahidul Islam*

التقديم

إن التصوف الإسلامي يمثل جزءاً كبيراً في تراث المسلمين، فلا بد من دراسة ذلك لبيان النافع من الضار والهدى من الضلال، ولإصلاح ما يمكن إصلاحه من ذلك ورفض ما لا سبيل لقبوله، وأهداف التصوف الإسلامي هو تزكية النفوس، لأن السلوك الصحيح وتزكية النفوس من أعظم أمور الدين، وأجل خصاله، حيث اهتم سلفنا الصالح بالسلوك الشرعي علماً وعملاً، فالسلوك الظاهر ملازم للإيمان الباطن، وصلاح الظاهر ناشئ عن صلاح الباطن. ومع شدة الحاجة إلى فقه السلوك علماً وعملاً، فإننا قد لا نجد كتابات معاصرة تعالج الجانب السلوكي من خلال منهج أهل السنة، إضافة إلى كثرة المخالفات والانحرافات للسلوك السوي من قبل أعداد كبيرة من أهل السنة، فضلاً عن غيرهم . الآن أبين عن أهداف التصوف وآثاره في حياة الإنسان إن شاء الله تعالى.

أهداف التصوف وآثاره في حياة الإنسان

إن أهداف التصوف أن يرتقي بالإنسان إلى تهذيب السلوك الإنساني، وكيفية السمو والإرتقاء بالنفس البشرية بالتزكية والتصفية، عن طريق علاج أمراض القلوب، وتصحيح المفاهيم والتصورات، وتقويم الجوارح وفق ضوابط الشريعة، والسمو الأخلاقي عن ملذات الدنيا وشهواتها للفوز برضى الله تعالى، ونيل سعادة الدارين. ويسعى المتصوف إلى الوصول إلى مرتبة المراقبة وإلى مرتبة الإحسان حتى يكون رقيبه منه ورقيبه فيه ورقيبه عليه بقوله صلى الله عليه وسلم : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.[1]

---

* الأستاذ المساعد، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة أتورا، داكا، بنغلاديش.

١. البخاري ، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي، **الجامع الصحيح**، (بيروت : دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ.)، ج ١، ص ٩٧، ح ٥٠؛ مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، **الجامع الصحيح**، ج ١، ص ١١٤، ح ١٠٢ .

وأن أقسم التصوف إلى ثلاثة أقسام بالنظر إلى أعمال وعقائد وسلوك خلال التاريخ ، وهي : التصوف السني[٢]، التصوف البدعي[٣]، التصوف الفلسفي. والمراد بالتصوف الإسلامي هو التصوف السني. هو ما كان قرين الزهد والتقلل من متاع الدنيا وملذاتها وهو امتداد لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، وإن كان هذا الزهد لم يعرف باسم التصوف إلا في أواخر القرن الثاني الهجري فإن أصله ومعناه وحقيقته

كان معروفاً في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حث على ذلك القرآن الكريم في كثير من أي الكتاب الحكيم قال تعالى : يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ.[٤] وقال تعالى : وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.[٥]

وكذلك كثر ذكر الزهد في كتب الحديث والسنن وكثرت أبوابه، والناظر فيها يجدها قد اشتملت على أبواب كثيرة مثل باب الزهد في الدنيا ، باب فضل الجوع ، باب القناعة والعفاف، باب فضل البكاء من خشية الله. والناظر في هذه الكتب يجد كثيراً من الأحاديث والآثار الواردة في الزهد ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بما يرجع.[٦] وقوله صلى الله عليه وسلم : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : إذا أمسيت فلا

---

٢. يدخل فيه صوفية الحقائق وصوفية الأرزاق والصوفية السلفية والأشعرية لأن الأشاعرة من أهل السنة وقد أكد ذلك ابن تيمية في أكثر من موضع في الفتاوي الكبرى مع مآخذه على الصوفية والأشاعرة ورده على أخطائهم.

٣. ويدخل فيه كثير من صوفية الأرزاق وصوفية الرسم ، وكثير من أصحاب الطرق والقبوريين.
وهذا التصوف خليط من التصوف الإسلامي والتصوف الجاهلي، وقد يكون رجاله أهل علم وأصحاب نوايا حسنة ، وأثرت فيهم العادات السائدة في عصرهم وخاصة ما فيها من بدع.
بعضهم حاول إصلاح الطرق فلم يستطع فاضطروا إلى تأويل أعمالهم التي هي في الظاهر مخالفة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ليوهموا الناس بأنها لا تعارض النصوص الشرعية وليسلموا من الطعون والانتقادات الموجهة إليهم.
– محمود الشوبكي، **مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي**، (بيروت : المكتبة العلمية، ت.ب.)، ص ٤٢.

٤. سورة فاطر، الآية : ٥.

٥. سورة العنكبوت، الآية : ٦٤.

٦. مسلم، **الصحيح**، ح ٢٨٥٨.

تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك.[٧]

ولذا لم يكن مستغرباً أن يزهد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم في دنياهم، ولا تابعوهم والسلف الصالحين. ولم يكن الزهد عن قلة المال وإنما الزاهد هو من جاءه المال فزهد فيه وأنفقه ولم يجعله كل همه. ومصادره القرآن الكريم[٨]، السنة النبوية[٩]، وآثار الصحابة والتابعين[١٠].[١١]

---

٧. البخاري، **الصحيح**، ح ٦٤١٦.

٨. والقرآن الكريم هو الأساس الذي يستمد منه كل علم شرعي شرعيته، وعليه يعتمد أهل الحق في التمسك بحقهم. كما أن القرآن الكريم هو الكتاب الخاتم وهو الكامل الشامل كما قال تعالى : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا.
– سورة المائدة، الآية : ٣.
لذلك لم يهمل القرآن الدعوة إلى الزهد والتقلل من متاع الحياة الدنيا التي يضرب لها مثلاً بقوله : إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.
– سورة يونس : الآية ٢٤.

٩. والمصدر الثاني من مصادر هذا الدين هو السنة النبوية ، لذا فإن الناظر في كتب السنن وفى شمائل النبي صلى الله عليه وسلم يجدها مليئة بالدعوة إلى الزهد واليك بعض المختارات من بستان النبوة الذي يعج ويحفل بوصف الدنيا ودنوها لطالبيها وأنها مزرعة الآخرة ولا تغنى عن الآخرة شيئاً.
قال صلى الله عليه وسلم : إن الدنيا حلوة خضرة، وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء.
– مسلم، **الصحيح**، ح ٢٧٤٢.

١٠. عند الرجوع إلى أحوال الصحابة رضي الله عنهم والتابعين نرى فيهم التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم بترك متاع الدنيا وزخرفها.
فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين وليَّ الخلافة دفع كل ما له في بيت مال المسلمين، فلما سئل عن ذلك قال : كنت أتجر فيه فلما وليتموني شغلتوني عن التجارة وحين وليَّ الخلافة خرج إلى السوق ليعمل فقال له الصحابة رضي الله عنهم : نفرض لك ففرضوا له قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا بأوكسهم، فكان له برداه للصيف والشتاء إن أخلقهما " أي قَدِمَا " وضعهما وأخذ مثلهما وظهره إذا سافر ، ونفقته على أهله كما كان ينفق عليهما قبل أن يُستخلف، فقال أبو بكر رضي الله عنه قد رضيت.
– علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري ، **كنز العمال**، (بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ)، ج ٣، ص ١٣٢.

إن الصوفية الأولياء هم آئمة المؤمنين والمتقين في الحياة اليومية بجميع طبقاتها وصنوفها. ذلك لأنهم العلماء الراسخون في العلم مصدقا حقيقيا لقوله عز وجل : فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.[١٢] كما وضحه سلطان الولاية مولى الأمة علي عليه وسلم : نحن أهل الذكر،[١٣] وهم الذين العلماء ورثة الأنبياء[١٤] بالحق وصريح الكمال، وأقرب الناس من درجة

وكان عمر رضي الله عنه على درب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه فحين فتحت عليه الدنيا كلمتاه عائشة وحفصة رضي الله عنهما في تغيير جبته التي كانت فيها اثنتا عشرة رقعة ويقدم له طعام يأكل منه وأضيافه، فأبا وقال إن له أسوة بصاحبيه فلا يجمع بين أُدمين إلا الملح والزيت، ولا أكل لحماً إلا في كل شهر ينقضي ما انقضى من القوم ولما قدم له ما ء قد شيب بعسل فقال : إنه لطيِّب وقال : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا.

– سورة الأحقاف : الآية ٢٠.

– علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري ، **كنز العمال**، ج ٤، ص ٤٠٨.

والمتبع لقصص الصحابة في الحلية ، وكنز العمال ، والبداية والنهاية ، وكتب السنن يجد الشيء الكثير من ذلك وكذلك قصص التابعين.

١١. محمود الشوبكي، **مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي**، ص ٤٣–٤٨.

١٢. **القرآن الكريم**، سورة النحل : ٤٣.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية : يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، قاله سفيان. وسماهم أهل الذكر؛ لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب. وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب في آمر محمد صلى الله عليه وسلم. وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن؛ أي فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن؛ قال جابر الجعفي : لما نزلت هذه الآية قال علي رضي الله عنه نحن أهل الذكر. وقد ثبت بالتواتر أن الرسل كانوا من البشر؛ فالمعنى لا تبدؤوا بالإنكار وبقولكم ينبغي أن يكون الرسول من الملائكة، بل ناظروا المؤمنين ليبينوا لكم جواز أن يكون الرسول من البشر. والملك لا يسمى رجلا؛ لأن الرجل يقع على ماله ضد من لفظه تقول رجل وامرأة، ورجل وصبي فقوله : إِلَّا رِجَالاً أي من بني آدم. وقرأ حفص وحمزة والكسائي : نُوحِي إِلَيْهِمْ.

–القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، **الجامع لأحكام القرآن**، (الرياض : دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، الطبعة : ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م)، ج ١١، ص ٢٧٢.

١٣. المرجع نفسه، ج ٧، ص ٢٥٤.

١٤. عَنْ قَيْسِ بْنِ كَثِيرٍ قَالَ قَدِمَ رَجُلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى أَبِى الدَّرْدَاءِ وَهُوَ بِدِمَشْقَ فَقَالَ مَا أَقْدَمَكَ يَا أَخِى فَقَالَ حَدِيثٌ بَلَغَنِى أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ قَالَ لاَ. قَالَ أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ قَالَ لاَ. قَالَ مَا جِئْتُ إِلاَّ فِى طَلَبِ هَذَا الْحَدِيثِ قَالَ فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– يَقُولُ : مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِى فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِى الْمَاءِ وَفَضْلُ الْعَالِمِ

النبوة[١٥] بأصل التعبير لكونهم العالمين والمجاهدين، وأفضل الناس[١٦] لتمام إيمانهم وقيام بأفضل الأعمال : العلم بالله تعالى[١٧]، فعلى هذا مستوى العلم العالي حقق رسول الله صلى الله عليه وسلم : علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.[١٨] لحفظهم على الأمة أحكامه صلى الله عليه وسلم وأحواله وأسرار علومه صلى الله عليه وسلم، لذلك قد عززهم وفخمهم بتبشيرهم الأبدي الحتمي بأن قوله عز وجل : أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.[١٩] هذا كله لأنهم قد داوموا على تبشير الإسلام وتبليغه ولم يزالوا يبذلون جهدهم العنيفة لإصابة الأهداف التي قد جعل الرسول العالمي صلى الله عليه وسلم أمامه، وأهدافه الحاسمة قد عينها الله تعالى بقوله سبحانه وتبارك وتعالى العظيم : كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.[٢٠]

عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ.

–الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الجامع **الصحيح** سنن الترمذي، (بيروت : دار إحياء التراث العربي، ب.ت.)، ج ١٠، ص ٢٠٤، رقم الحديث : ٢٨٩٨.

١٥. عن ابن عباس رضي الله عنه قال : أقرب الناس من درجة النبوة أهل الجهاد وأهل العلم لأن أهل الجهاد يجاهدون على ما جاءت به الرسل، وأما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الأنبياء.

–علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، (بيروت : مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة،١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ج ٤، ص ٣١٠، ح ١٠٦٤٧.

مصدر الكتاب : موقع مكتبة المدينة الرقمية

١٦. السيوطي، جلال الدين، **جامع الأحاديث**، (بيروت : مؤسسة الرسالة، ب.ت.)، ج ٥، ص ٣١٥، ح ٤٢٠٢.

١٧. حدثني علي بن مسلم الطوسي، حدثنا سيار بن حاتم، حدثنا جعفر بن سليمان، سمعت عبد الله الرازي، يقول : لقد كان أهل العلم بالله والقبول عنه يقولون : إن الشبع يقسي القلب.

–العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، **إطراف المُسْنِد المعتَلي بأطراف المسنَد الحنبلي**، (دمشق : دار ابن كثير، ب.ت.)، ج ٢، ص ٦٥٩، ح ٣٠١٥.

١٨. العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي، **كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس**، (بيروت : دار إحياء التراث العربي، ت.ب.)، ج ٢، ص ٦٤، ح ١٧٤٤.

١٩. سورة يونس : ٦٢.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ألا إن أنصار الله لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله، لأن الله رضي عنهم فآمنهم من عقابه–ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا.[أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، **جامع البيان في تأويل القرآن**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م)، ج ١٥، ص ١١٨.]

٢٠. سورة البقرة، الآية : ١٥١.

هكذا أنزل الله سبحانه وتعالى الآيات كثيرة تبين أهداف التصوف التي تتأثر في حياة الإنسان وينطلق من الضلالة إلى الهدى، ومن الشر إلى الخير، ومن المنكر إلى المعروف وغير ذلك. وهذه التعيينات تبرز بالوضوح أن أهداف النبي المللي صلى الله عليه سلم والإسلام دينا تحت رئاسته صلى الله عليه وسلم وهي السبعة. هذه الأهداف السبعة يرتكز الإسلام في إنجازها وهي بإتمامها استمرازدهار روح الدين، وبلغت المقاصد الإسلامية أوج التسلسل وفاز الأولياء العارفين بالعروج في الدرجات العليا دائما؛ وتلك هي قد تقررت أهداف التصوف فما زال الصوفية يحاولون إصابتها بأحسن الطريق، وإنجازها إلى درجة الإحسان حتى ساد الإسلام في كل أنحاء العالم، ولو لم تنهر القياد الإسلامية السياسية لخلد المسلمون سلطة عالمية عليا. فالمناسب أن تلقي الأضواء على تلك الأغراض السبعة بلإيجاز لكي يسهل لنا فهم منهاج الصوفية. وأهداف التصوف الإسلام حسب ما نعرفها هي السبعة التي نحن بصدد البيان:

أولا : تلاوة الآيات القرآنية

إنما تلاوة الآيات تتضمن أوجها :

أ. هو قرأة الرسول نص القرآن على الناس بطريق الوحي الإلهي إليه صلى الله عليه وسلم، فإنها قد انقطعت بعده صلى الله عليه وسلم وهو صلى الله عليه وسلم ختم المرسلين.[٢١]

ب. هو قرأة القرآن ترتيلا على سبيل العبادة لله تعالى وذكره، فجريان العمل بها متصل مستمر، والصوفية أشد تلاوة في هذا المعنى لكونهم أبلغ الناس في العبادة، فأمثال الجنيد والشيخ عبد القادر الجيلاني الذين كانوا يتعودون بتلاوة القرآن كله مرارا كل

يُذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبينات وَيُزَكِّيهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودَنَس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب-وهو القرآن-والحكمة-وهي السنة-ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فكانوا في الجاهلية الجَهْلاء يُسفَهُون بالقول الفرَى، فانتقلوا ببركة رسالته، ويُمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء فصاروا أعمق الناس علمًا، وأبرهم قلوبًا، وأقلهم تكلفًا، وأصدقهم لهجة. -ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، (بيروت : دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/١٩٩٩ م)، ج ١، ص ٤٦٤.

٢١. البيضاوي، قاضي نصير الدين، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (بيروت : دار الكتب العربي، ت.ب.)، ج ١، ص ١٤٢.

يوم، فضلا عن تلاوتهم إياه على الناس إبان وعظهم والصلوات المفروضة بالجماعة إماما.[٢٢]

جـ. هو أن "الآيات" هي الدلائل على التوحيد والنبوة،[٢٣] أو الحجج أو الدين أو الدعوة إلى التوحيد. هذا هو أيضا جاربين العلماء.[٢٤] ويشهد التاريخ الإسلامي وكتب الصوفية على أنهم لم يدخر جهدا ولا إخلاصا في تبيان الدلائل على التوحيد والرسالة النبوية للناس يدعونهم إلى التوحيد الإلهي ويبلغون الدين بأصله عليهم موافقين لنصوص القرآن مستنيرين بالأنوار من صدر النبي صلى الله عليه وسلم مزودين بالإلهام الإلهي ولإلقاء الربانية حتى قامت سيطرة الإسلام على العالم. وفيه لم يفقهم أحد قط سواء كان فقيها أو متكلما.

ثانيا : التزكية

إن لفظ "التزكية" هي عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها حسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة.[٢٥] فإن : العمل بالقرآن

---

٢٢. أبو الفضل، محمود الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، (بيروت : دار إحياء التراث العربي، ت.ب)، ج ١، ص ٦٠٨.

٢٣. إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، **تفسير روح البيان**، (بيروت : دار إحياء التراث العربي، ت.ب)، ج ١، ص ٢٩٤؛ قاضي ثناء الله، **التفسير المظهري**، (بيروت : دار الكتب العلمية، ت.ب)، ج ١، ص ١٤٨.

٢٤. الماتريدي، الإمام أبي منصور محمد بن محمد، **تأويلات أهل السنة تفسير الماتريدي**، (مصر : دار الفكر، ت.ب.)، ج ١، ص ٥٧١.

٢٥. محمد بن محمد العمادي أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم [تفسير أبي سعود]**، (بيروت : دار إحياء التراث العربي، ب. ت.)، ج ١، ص ٢٩٤.
إلا أنها وسطت بين التلاوة والتعليم المترتب عليها للإيذان بأن كلا من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر ولو روعي ترتيب الوجود كما في دعوة إبراهيم عليه الصلاة و السلام لتبادر إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة وقيل : قدمت التزكية تارة وأخرت أخرى لأنها علة غائية لتعليم الكتاب والحكمة وهي مقدمة في القصد والتصور مؤخرة في الوجود والعمل فقدمت وأخرت رعاية لكل منهما وأعترض بأن غاية التعليم صيرورتهم أزكياء عن الجهل لا تزكية الرسول عليه الصلاة و السلام إياها المفسرة بالحمل على ما يصيرون به أزكياء لأن ذلك إما بتعليمه إياهم أو بأمرهم بالعمل به فهي إما نفس التعليم أو أمر لا تعلق له به وغاية ما يمكن أن يقال : إن التعليم بإعتبار أنه يترتب عليه زوال الشك وسائر الرذائل تزكيته إياهم فهو بإعتبار غاية وبإعتبار مغياك الرمي والقتل في قولهم : رماه فقتله فأفهم ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

متفرع على معرفة معناه وهو متفرع على معرفة ألفاظه والتزكية غاية أخيرة لأنها متفرعة على العمل.[٢٦]

هذه الفريضة تستدعى مبلغا أن يأخذ باستراجية عملية لتطهير النفس من أرجاس الشرك، وأنجاس الشك، وأدناس الذنوب، وقاذورات المعاصي بترك الزذائل وتعود المحامد متعمدا لتخلية القلب عن كل ما سوى الله تعالى. وقد أداها الرسول الحكيم صلى الله عليه وسلم بأحسن سبله صلى الله عليه وسلم وأكمل تعليماته صلى الله عليه وسلم وقد واصل الصوفية المجتهدين العمل بالاستمرار تحت رئاسة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الفعالة وإرشاده صلى الله عليه وسلم الأبلغ لسد الحاجات الناشئة في كل زمان. بالنظر إلى أرجحية التزكية هذه في أعمال الإنسان قد رتب الإسلام نظاما منتسكا جيدا لإنجاز هذا الغرض للغاية، له جانبين :

الجانب الأول : تطهير النفس

إنما تطهير النفس هو تخليصها من ذمام الأخلاق ومغريات الحياة بتمرينها على الاقتفاء بمحاسن الأخلاق ومكارم الآداب إلى أن تنتظم على درب الشريعة المطهرة سلسلة أفكار الإنسان، ومجري أخيلته ومسار مشاعره وحلبة رغائبه ومشهد آماله، ومجال طموحاته، ومدى متطلباته الحيوية حتى يصدر عنه كل فعل متسقا منسجما مع أحكامها من غير عمد في كل حال.

هذا هو ما يستهدفه الإسلام، ولمناسبته قد أقترح منهجية عملية عليها التدريب كفيل لتنسيق النشاطات وتعديل الأعمال. وطبقا لمبادئ التربية المتدرجة بالنظر إلى فطرة الإنسان وطبيعته نقدر على سبكها في سبع نفوس موافقا للقرآن والسنة، وهي :

– محمود الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٩.

٢٦. لكنها قدمت في الذكر نظراً إلى تقدمها في التصور : وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.

قال الراغب : إن قيل ما معنى ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون وهل ذلك إلا الكتاب والحكمة قيل عني بذلك العلوم التي لا طريق إلى تحصيلها إلا من جهة الوحي على ألسنة الأنبياء ولا سبيل إلى إدراك جزئياتها وكلياتها إلا به وعنى بالحكمة والكتاب ما كان للعقل فيه مجال في معرفة شيء منه وأعاد ذكر ويعلمكم مع قوله ما لم تكونوا تعلمون تنبيهاً على أنه مفرد عن العلم المتقدم ذكره.

–إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، **تفسير روح البيان**، ج ١، ص ٢٠٥.

١. **النفس الأمـــارة** : إنما النفس الأمارة هي تحرض الإنسان علـــى الـــشر وارتكـــاب البائقات والمنهيات وتستجلبه إلى مغريات الحياة الدنيوية حتى يستغرق في مفاتنهـــا وتسوفاتها منصرفا عن الله عز وجل تعالى الخالق كل شيئ. لذلك أنبئنه الله تعالى عليها بقوله : وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّـــي إِنَّ رَبِّـــي غَفُورٌ رَحِيمٌ.[٢٧]

٢. **النفس الملهمة** : إنما النفس الملهمة هي القوة التمييزية، عبارة عن صلاحية النفس لامتياز الخير عن الشر بما أنها تحس بالحاجة الملحة إلى الخير وتجذبها دواعيـــه. هذه المناسبة صرح به رسول الله صلى الله عليه و سلم لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن غزوة : والجهاد الأكبر جهاد النفس كما قال بعـــض الـــصحابة رضي الله عنهم رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر يعنون جهاد النفس.[٢٨]

فإنما الوعي بها مع عزم العبد على الإصلاح يحرك فضل الله عز وجل فإنه يبـــين له أمور التقوى ومعالمه والطاعات عن الفجور والمعاصي بطريق العلم، حيث قال : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا.[٢٩]

---

٢٧. سورة يوسف : ٥٣.

قال شهاب الدين الألوسي : أي لا أنزهها عن السوء قال ذلك عليه السلام : هضما لنفسه البرية عن كل سوء وتواضعاً لله تعالى وتحاشياً عن التزكية والإعجاب بحالها على أسلوب قوله صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم ولا فخر. أو تحديثاً بنعمة الله تعالى وإيرازاً لسره المكنون في شأن أفعال العباد أي لا أنزهها من حيث هي هي ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله سبحانه بل إنما ذلك بتوفيقه جل شأنه ورحمته، وقيل : إنه أشار بذلك إلى أن عدم التعرض لم يكن لعدم الميل الطبيعي بل لخوف الله تعالى : {أَنَّ النفس} البشرية التي من جملتها نفسي في حد ذاتها {لامَّارَةٌ} لكثيرة الأمر {بالسوء} أي بجنسه، والمراد أنها كثيرة الميل إلى الشهوات مستعملة في تحصيلها القوى والآلات. وفي كثير من التفاسير أنه عليه السلام حين قال : {لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب} [يوسف : ٥٢] وهو إن صح يحمل الهم فيه على الميل الصادر عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق العزم والقصد، وقيل : لا مانع من أن يحمل على الثاني ويقال : إنه صغيرة وهي تجوز على الأنبياء عليهم السلام قبل النبوة، ويلتزم أنه عليه السلام لم يكن إذا ذاك نبياً.

-الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، المرجع نفسه، ج ٩، ص ٤٨.

٢٨. أبو الفضل العراقي، المغني عن حمل الأسفار، (الرياض : مكتبة طبرية، ١٤١٥هـــ - ١٩٩٥م)، ج ٢، ص ٧٠٩؛ الغزالي، **إحياء علوم الدين**، المرجع نفسه، ج ٣، ص ١٣٤.

٢٩. سورة الشمس : ٧ -٨.

لأن الفلاح يركن إلى تزكيتها والخيبة إلى تدسيتها، بقوله عز وجل : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا.[٣٠]

٣. **النفس اللوامة** : النفس اللوامة هي حالة النفس نالت بها بعد ارتحالها من النظرية إلى العملية مما قد نشب فيه الصراع الخياري بين مقتضيات الخير ومتطلبات الشر وبين نزعات الجمع وسيلات التشعيب عما يختل سكونها واطمئنانها ولكنها توصل تمسكها بمدافعة النفس الشهوانية بالاعتراض عليه عليها ومخالفتها وملامتها وتحاول التغلب عليها بالاستمرار حتى تصبح أشد محاسبة ومؤاخذة إلى أن تعرقل العبد عن الشر وتجبره على تركه برمته فتستحق الأشادة الربانية حيث قال : وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ.[٣١]

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة. (تفسير ابن كثير، المرجع نفسه، ج٨، ص ٤١١) كما قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ.

سورة الروم : ٣٠.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ، هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ.

-البخاري، **الصحيح**، المرجع نفسه، ج ٥، ص ٣٢١، ح ١٣٨٥.

وفي صحيح مسلم من رواية عياض بن حمار المجاشعي، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي حُنَفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم.

-مسلم، **الصحيح**، المرجع نفسه، ح ٢٨٦٥.

٣٠. سورة الشمس، الآية : ٩ -١٠.

أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح. وأخفى نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنس بالرذائل، والدنو من العيوب، والاقتراف للذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسيها.

-عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، (بيروت : مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م)، ج ١، ص ٩٢٦.

٣١. سورة القيامة، الآية : ٢.

وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سميت لوامة، لكثرة ترددها وتلومها وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه، من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء، وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء.

-عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، ج ١، ص ٨٩٨.

ويثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على السالك لما يكابده من الصعوبات النفسية، والعوائق البدنية وتسلقه إياها بالصبر والاستقامة في مضمار التزكية بقوله صلى الله عليه وسلم : عَنْ عَمْرَو بْنَ مَالِكٍ الْجَنْبِيَّ يَقُولُ سَمِعْتُ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ : الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. [٣٢]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا : أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه في الله وهواه.[٣٣]

٤. **النفس المطمئنة** : النفس المطمئنة هي موقف النفس فيها تأخذ القرار في مطابعة الشريعة كاملا بالاعتماد بحقيتها ترتبه على "سكونها إلى الحق واطمئنانها به، وذلك إذا قطعت الأفعال المذمومة رأسا والخواطر المذمومة مطلقا"[٣٤] "وتخلقت بالأخلاق الحميدة"[٣٥] فإنما العبد ينفي جملة دواعى الشر ويقضي عل رجات التشعيب كليا وتروح عنه أعمال الخير وتجتلبه نهضات الجمع برجاء لقاء ربه تعالى حيث قال عز وجل : يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ.[٣٦]

فإذا اكتمل الرجوع إلى الله تعالى باليقين الكامل وأشتد ولوع العبد باللقاء الإلهي نجزت هذه المرحلة وأشرقت المرحلة القادمة مسماة بالنفس الراضية.

٥. **النفس الراضية** : النفس الراضية عبارة عن حالها فيما تنعقد النزوعات السلبية والاتجاهات الإيجابية في مثل وحدة العمل مما يضير العبد راضيا بالفعل الإلهي وما يصادفه على طريق إلى الله تعالى بالصبر والصلوة، فإنما مكابدته المشاكل والصعوبات لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ومجاهدته في الله تفتح عليه

---

٣٢. أحمد، **المسند**، المرجع نفسه، ج ٥٢، ص ٢٩٩، ح ٢٤٦٩٢.

٣٣. علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، (بيروت : مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ج ٤، ص ٤٣٠، ح ١١٢٦٠..

٣٤. الجيلي، الإمام الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي، **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، (بيروت : مؤسسة التاريخ العربي، ٢٠٠٠م)، ص ٢٠٢.

٣٥. الكشاني، العارف بالله الشيخ عبد الرزاق الكشاني، **اصطلاحات الصوفية**، (بيروت : دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥)، ص ٨٣.

٣٦. سورة الفجر، الآية : ٢٧.

أبواب الرجاء الكامل للقاء الإلهي تزيده رضا بالله عز وجل وتشوفا إلى رضـــا الله تعالى.

فالنزوعات السلبية بالاشراك مع الاتجاهات الإيجابية تنسكب إلى الفوز برضـــا الله تعالى برضا النفس به تعالى ناظرة في المحودات الشرعية بالخواطر المحمودة لله تعالى لا غير. هذا الولوع بالقرب الإلهي يأتي من عند الله ببشارة : ارْجِعِي إِلَـــى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً.[٣٧]

هذا المقام الذي قد أثبتته مثابرة النفس من قبل فيعجله إلى المرحلة السادسة بـــدون التوقف الطويل.

٦. **النفس المرضية** : النفس المرضية تلوح إلى حال النفس فيها تتحد النزوعات السلبية والاتجاهات الإيجابية في لون واحد إلى أن تفقد هو يتهما الفردية منسجمة في نزعة واحدة إلى التقرب الإلهي برضاه تعالى حتى تظهر آثار الرضي مـــن الفيوضـــات الإلهية على العبد والأشراقات الربانية من علم الغيب وطي الأرض وغيرها فيستمع من عند الله تعالى إلى بشارة القبول : ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً.[٣٨] وقـــال تعالى أيضا : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَـــارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.[٣٩]

فالحب لله عز وجل يتقن العمل بالمحامد إلى النيل برضوان الله منتهيا إلى التجاوب المقدس. وكان مثل هذه المناسبة حينما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لـــسيدنا

---

٣٧. سورة الفجر، الآية : ٢٨.

٣٨. سورة الفجر، الآية : ٢٨.

٣٩. سورة التوبة، الآية : ١٠٠.

وقال الله سبحانه وتعالى أيضا : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

-سورة المائدة، الآية : ١١٩.

وقال الله عز وجل أيضا : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

-سورة المجادلة، الآية : ٢٢.

وقال الله سبحانه وتعالى أيضا : جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ.

-سورة البينة، الآية : ٨.

أبي بكر الصديق الأكبر رضي الله عنه : يا أبا بكر تحية من عند الله إياك! هبط جبريل فقال: يا محمد! من هذا المتخلل بالعباءة عن يمينك؟ فقلت: هذا أبو بكر، أنفق ماله علي قبل الفتح وصدقني وزوجني ابنته، فقال: يا محمد! أقرئه السلام من الله وقل له : أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فبكى أبو بكر طويلا ثم قال: رضيت وسلمت لقضاء الله وقدره يا رسول الله.[٤٠]

فإنما هذه المرحلة تختص بالحصول على الرضوان الإلهي والتجاوب المقدس بالفعل مما يزيد النفس هيمانا بالله تعالى وتركيزا في لذة القرب حتى تجعل تنسى عينها وكل ما سوى الله عز وجل. وهذه النقطة عينها يصعدها إلى المرحلة الأخير هي النفس الكاملة.

٧. **النفس الكاملة** : النفس الكاملة هي قمة تصعيدها الروحي حيث تنقطع الخواطر المحمودة أيضا كما انقطعت المذمومة من قبل، لا يرى العبد سوى الله تعالى حتى لا يرى ذاته فعلا ولا عملا، ترفع الفروق ويفسح الفصل وينكشف مشهد : كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.[٤١] وقال عز وجل : فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي.[٤٢]

ههنا إنما العبد يصير "عبده" بفضل الله تعالى وبفيضان الرسول الله صلى الله عليه وسلم فشأنه بشأنه صلى الله عليه وسلم كأنه : وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى.[٤٣] وحق عليه قوله سبحانه وتعالى : وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى.[٤٤]

ويصوره الحديث القدسي التي روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه – صلى الله عليه وسلم –إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ

---

٤٠. علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، (بيروت : مؤسسة الرسالة، ب. ط.)، ج١٢، ص ٥٠٥، ح ٣٥٦٤٩.

٤١. سورة القصص، الآية : ٨٨.

٤٢. سورة الفجر، الآية : ٢٩-٣٠.

٤٣. سورة النجم، الآية : ٣-٤.

٤٤. سورة الأنفال، الآية : ١٧.

حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَىْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِى عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ.[٤٥]

هذه التزكية التي ما زال يستهدف الصوفية عبر العصور هذه الحقيقة تشهد عليها جميع ما قالوا وعملوا في غابرهم وحاضرهم معا، حتى قد قبل شيخ الإسلام أن : تزكية النفس في الأصل تنتج عن العمل بالتعليم الذي يشيعه القرآن والسنة في تضاعيفهما كل مكان، وهذا هو معبر عن التصوف. فإنما لا يمكن عبور مراحل تزكية النفس بدون معرفة تعليمات التصوف وفهمها والعمل بها، وما لم يفز الإنسان بتزكية النفس لا يدرك مقصد الحياة له ولا يتأهل عملا لكونه خليفة الله في الأرض.[٤٦]

الجانب الثاني : تصفية القلب

إنما القلب قد كونه الله تعالى بحيث جميع نظم البدن يدور عليه وحوله وجملة السوقيات الجسدانية النفسية تبعث منه وتنتهي إليه فإن فعالية الميكانيات البدنية فشلت إن لم يتجاوب القلب. والملك المشتغل لجميع آلات البدن، والمستخدم لها، فهو محفوف بها، محشود، مخدوم، مستقر في الوسط، لأنه هو اللطيفة الإلهية تتعلق بها المقاصد الدينية والروحية، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، لها علاقة محيرة العقول مع القلب الجسماني، فإنه هو المدرك العالم العارب من الإنسان، وهو المخاطب والمطالب والمعاقب والمثاب. لهذا وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم : عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-.

---

٤٥. البخاري، **الصحيح**، المرجع نفسه، ج ٢١، ص ٣٩٢، ح ٦٥٠٢.

هذا المقام حيث تمطر على العبد الفيوضات الإلهية مباشرة برحمة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ويجعل قلبه مهبط الأسرار الربانية وهو يظهر بشأنه الحقيقي خليفة الله في الأرض بالحق وكلية الجمع، "فإنه يلوح بظاهريته كعامة الناس ولكن قلبه وباطنه وشخصيته، سمائه وأرضه قد أصبحت متغيرة، وحقيقته قد صارت مختلفة عنهم لكونها الآن أرفع أعلى ممالهم."

-القادري، شيخ الإسلام الدكتور محمد طاهر القادري، **حقيقت تصوف**، (لاهور : منهاج القرآن فبليشر، ٢٠٠٦م)، ص ٢٢٠.

٤٦. القادري، شيخ الإسلام الدكتور محمد طاهر القادري، **حقيقت تصوف**، المرجع نفسه، ص ٢٢٠.

فَذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ دَاوُدَ وَزَادَ وَنَقَصَ وَمِمَّا زَادَ فِيهِ : إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ.[٤٧]

وقال الله تبارك وتعالى : لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ.[٤٨]

والتكلم عن تطهير النفس في الحقيقة تصفية القلب بأول وهلة وتقدمه بالذكر عموما ينشأ من الفرق بين الظاهرية والباطنية لما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قرن فساد هذه المضغة بفساد جسد الإنسان كله وإصلاحها بإصلاحه كله. كما ذكر الإمام الشيخين في الصحيحين عَنْ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ.[٤٩]

وقد جاء في الحديث آخر عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ.[٥٠]

---

٤٧. مسلم، **الصحيح**، المرجع نفسه، ج ٨، ص ١١، ح ٦٧٠٧.

٤٨. سورة الحج، الآية : ٣٧.

٤٩. البخاري، الجامع **الصحيح**، المرجع نفسه، ج ١، ص ٢٠، ح ٥٢؛ مسلم، **الصحيح**، المرجع نفسه، ج ٥، ص ٥٠، ح ٤١٧٨..

٥٠. أحمد، **المسند**، المرجع نفسه، ج ١٧، ص ٢٠٨، ح ١١١٢٩.

وقد جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو قال قيل لرسول الله صلى الله عليه و سلم أي الناس أفضل قال : كل مخموم القلب صدوق اللسان. قالوا صدوق اللسان نعرفه. فما مخموم القلب؟ قال : هو التقي النقيث. لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد.

– ابن ماجه، **السنن**، المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٤٠٩، ح ٤٢١٦.

فبالموافقة مع الآيات والأحاديث نستطيع تصنيف القلوب إلى السبعة وهي : القلب الأغلف[٥١]، والقلب المنكوس[٥٢]، والقلب المصفح[٥٣]، والقلب المنيب[٥٤]، والقلب المؤمن[٥٥]، القلب المخموم[٥٦] والقلب السليم[٥٧].

---

٥١. **القلب الأغلف** : إنما القلب الأغلف هو قلب الكافر يختص بختم الله تعالى عليه وطبعه عليه مترتبا على العمي في الأبصار والوقر في الأسماع والحجاب عن فهم الحق لأجل رجه العضال المستمر للحق وتكبره عن قبوله وسكونه الدائم إلى النفس الأمارة حتى يتكدسا وحدة بالكلية فيصير حقيقت، حيث قال الله تعالى : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

-سورة المطففين، الآية : ١٤.

وقال الله تعالى أيضا : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ.

- سورة الأعراف، الآية : ١٧٩.

٥٢. **القلب المنكوس** : هو قلب المنافق قريب من القلب الأغلف متمش مع النفس الأمارة ينفرد بإنكار الحق بعد معرفته، لذلك هو شر القلوب. حيث قال الله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ. فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ. وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ. اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ.

-سورة البقرة، الآية : ٨ – ١٦.

٥٣. **القلب المصفح** : إنما القلب المصفح يختص بالارتياب ولأجله بالتصارع العنيف النفسي بين مرجحين وتراوحه بين أمرين مستجلبين على السواء حتى أيهما يختاره فهو له فيمتاز عن القلب المنكوس بتفكره ثنائي الأتجاه في الحياة.

٥٤. **القلب المنيب** : هو ما يمتاز بإنابته إلى الله جل شأنه والاستبشار بهدي الله تعالى إذ ينبري له الصراع النفسي بين السلبيات والإيجابيات فيتصل بالنفس اللوامة بترجيحه إياها إلى الخير واختياره إياه وحين يعتاد هذه القوة الخيارية يسمى القلب المنيب لكونه مستحقا للهداية من الله تعالى لفضله كما قد وعده الله تعالى : اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيب.

- سورة الشورى، الآية : ١٣.

وإذا استمالته مغرية من مغريات الحياة تاب لافور إلى الله تعالى مستغفرا لإرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم إياه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ : إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ

ثالثا : تعليم الكتاب

إن تعليم الكتاب يحتوي على تفهيم ألفاظ القرآن، وتبيين كيفية أدائها والإيقاف على حقائقه وأسراره وما فيه من المعاني والأحكام من الأمر والنهي والشرائع بحسب القوة النظرية. هذا الهدف أيضا مزال الصوفية يدركون بكماله من البدء إلى الآن، بما أنهم جميعهم ما كانو إلا المفسرين البارعين والمحدثين البصيرون والفقهاء الكاملين المتسقين فإنهم قد أصابوا هذا الهدف كما كان حقه حتى قد كانوا في كل عهد مرجعا للفقهاء الظواهر إلى أنهم لو لم يكونو الفشل العلماء والفقهاء في تكميل مقاصدهم فلسقط الإسلام من عين بدء أمره. عليه شهادة كل ورق التاريخ الإسلامي لأن الرجال كأمثال الإمام الأعظم والشافعي و أحمد بن حنبل والإمام عبد القادر الجيلاني والإمام الشعراني كلهم صوفيون أجلة من الفقهاء العلماء المحدثين المفسرين. فأشاعوا القرآن والسنة وتعليماتها بين الناس بطهير قلوبهم وتزكية نفوسهم حتى قامت سيطرة الإسلام والمسلمين على العالم كله.[٥٨]

فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ). قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

-الترمذي، **السنن**، المرجع نفسه، ج ١٢، ص ١٩٤، ح ٣٦٥٤.

٥٥. القلب المؤمن : إنما القلب المؤمن يتميز لاستقراره في الإيمان وشرح الصدر وبه استعداده للتقوى، واستقامته على أحكام الشرعية والربط الإلهي عليه وتثبيت الفؤاد بالوحي والموعظة والتأليف ونزول السكينة عليه من الله تعالى حتى يأتيه الاطمءنان بذكر الله عز وجل. هذا هو ما يثبته الله تعالى بقوله : مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ.

-سورة الروم، الآية : ٣١.

٥٦. **القلب المخموم** : القلب المخموم إنما خصائصه صدق اللسان وكونه : هو التقي النقي لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد. والاطمئنان القائم بذكر الله وبمشاهدة الأشياء كما هي وبها الربط عليه. هكذا يميزه الله تعالى بقوله عز وجل : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي.

-سورة البقرة، الآية : ٢٦٠.

٥٧. **القلب السليم** : القلب السليم إنما القلب السليم يختص بكمال المعية الإلهية لجرية في الله بالله لإدراكه سر : وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

-سورة الحديد، الآية : ٤.

وقال الله تعالى : وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

-سورة الشعراء، الآية : ٨٧ – ٨٩.

٥٨. الألوسي، **روح المعاني**، المرجع نفسه، ج ١، ص ٦٠٩.

رابعا : تعليم الحكمة

الحكمة مأخوذ من الحكمة – بفتح الكاف والميم – وهو ما يوضع للدابة كي يـذللها راكبهـا فيمنع جماحها. ومنه اشتقت الحكمة قالوا : لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل.

الحكمة هي وضع الأشياء مواضعها. وفي معناها أقوال متنوعة. كمـا تـستعمل بمعنـى : العدل، والعلم، والحلم، والنبوة، والقرآن، والإنجيل. وأحكم الأمر[٥٩]، ومعرفة أفضل الأشـياء بأفضل العلوم[٦٠]، وإصابة الحق بالعلم والعقل[٦١]، والحكيم[٦٢] وغير ذلك.

أنزل الله تعالى عن الحكمة في القرآن الكريم وسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسـلم في والسنة النبوية. والحكمة هو معرفة الحق والعمل به، والعلم النـافع والعمـل الـصالح، والخشية لله، والسنة، والورع في دين الله، وسرعة الجواب مع الإصابة. وقد ذكر بعـضهم تسعة وعشرين قولًا في تعريف الحكمة.[٦٣]

وهذه الأقوال كلها تتقارب بعضها من بعض؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتقـان في قول أو فعل، فكل ما ذكر فهو نوع من الحكمة التي هي الجنس، فكتاب الله حكمة، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم حكمة، وكل ما ذكر من التفصيل فهو حكمة. وأصل الحكمـة مـا يمتنع به من السفه. فقيل للعلم حكمة ؛ لأنه يمتنع به من السفه، وبه يعلم الامتناع من الـسفه الذي هو كل فعل قبيح.[٦٤]

---

٥٩. ابن منظور، **لسان العرب**، باب الميم، فصل الحاء، ج ١٢، ص ١٤٣.

٦٠. أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، (بيروت : المكتبـة العلميـة، ١٣٩٩هـ.)، باب الحاء مع الكاف، مادة حكم، ج ١، ص ١١٩.

٦١. راغب الاصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف، **مفردات غريب القرآن**، (بيروت : دار الكتـب العلمية، ت.ب.)، كتاب الحاء، مادة : حكم ص ١٢٧.

٦٢. –القرطبي، بو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، **الجامع لأحكام القـرآن**، (الرياض : ار عالم الكتب، ١٤٢٣ هـ.)، ج ١، ص ٢٨٨.

٦٣. أبو حيان الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان، **تفسير البحر المحيط**، (بيروت : دار الفكر، ت.ب.)، ج ٢، ص ٣٢٠.

٦٤. القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، المرجع نفسه، ج ٣، ص ٣٣٠.

قال الإمام النووي – رحمه الله – وأما الحكمة ففيها أقوال كثيرة مضطربة قد اقتصر كل من قائليها على بعض صفات الحكمة، وقد صفا لنا منها : أن الحكمة عبارة عن العلم المتصف بالأحكام، المشتمل على

وذكر الله تعالى في القرآن الكريم هذا اللفظ، حيث قال : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ.[٦٥]

وحيث هو ما قال أبو بكر الوراق رضي الله عنه : الحكماء خلفاء الأنبياء، وليس بعد النبوة إلا الحكمة.[٦٦]

يصبح أشد مطابقة مع الحقيقة أن الإمام الشافعي رضي الله عنه والإمام أحمد بن حنبل أذعنا لشيبان الراعي قدس الله سره لمعرفة المسائل الشرقية ودقائقها كما كان رجوع الإمام أحمد بن حنبل إلى أبي حمزة البغدادي الصوفي، وأبو العباس بن سريج إلى سيد الطائفة الجنيد، والإمام أبي عمران إلى الشبلي رضي الله عنهم أجمعين في شتى دقائق المسائل.[٦٧]

وفي عصرنا الحاضر إنما الكثيرون من العلماء والفقهاءهم مريدون للصوفية كالإمام الأكبر ومهر علي الشاه ومحمد كرم الشاه الأزهري وعلاء الدين الصديقي آدام الله بركاتهم، وهذا المشهد ليس بمقصور على عصرنا فقط بل إنه هو كان في كل عمصر فما قد أنار به من الحكمة الأولياء العظام قلوب المريدين والعلماء على السواء عبر العصور لم يبق إلا بلا نظير له في أي عصابة كانت من الفقهاء أو من العلماء.

فإن الصوفية الكحماء ماداموا ينورون القلوب بالمعارف الشرعية ودقائق المسائل، وهذه الحقيقة لا ينكرها إلا جاهل ما يفهم الدين ولا يدرك ماهية العلم نفسه لأنه ما يريده دين الإسلام لجهاته المختلفة لم يبلغ قط إلا بمساعي الصوفية وتنويراتهم وتبليغاتهم بتطهيراتهم وفيوضاتهم.

المعرفة بالله تبارك وتعالى المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق والعمل به والصد عن اتباع الهوى والباطل، والحكيم من له ذلك. قال أبو بكر بن دريد : كل كلمة وعظتك وزجرتك أودعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة وحكم.

النبوي، **شرح النووي على صحيح مسلم**، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٣.

٦٥. سورة البقرة : ٢٦٩.

٦٦. الحارثي، الإمام الشيخ أبي ظالب المكي محمد بن علي بن عطية الحارثي، **علم القلوب**، (بيروت : دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م)، ص ٣٣.

٦٧. محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، **الطبقات الكبرى**، (بيروت : دار صادر، الطبعة الأولى، ١٩٦٨ م)، ج ٧، ص ٢٣٨.

خامسا : تعليم الغيب

إنما تعليم الغيب المشار إليه في الآية الكريمة : وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.[٦٨] كان إيضا وظيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن حق اليقين وبه اطمئنان النفس والقلب يؤكد القرآن حصوله لا يأتي إلا به، لذلك قد زود الله رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم به وفيرا فيجلي هذه الحقيقة بقوله سبحانه وتعالى : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا.[٦٩]

والمسلم كليا بأن سيدنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الرسل المرتضين فإنه أوفر حظا من علم الغيب من جملة الرسل بما أن الله عز وجل قد خصه بذكره في هذا الخصوص بقوله سبحانه وتعالى : وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ.[٧٠]

هذا الغيب هو العلم اللدني كما يوضحه المفسرين في آية : كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ[٧١] يعني : بقوله جل ثناؤه:"كما أرسلنا فيكم رسولا"، ولأتمّ نعمتي عليكم ببيان شرائع ملتكم الحنيفية، وأهديكم لدين خليلي إبراهيم عليه السلام، فأجعل لكم دَعوتَه التي دعاني بها ومسألتَه التي سألنيها فقال: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.[٧٢]

كما جعلت لكُم دعوته التي دعاني بها، ومسألته التي سألنيها فقال: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.[٧٣]

فابتعثت منكم رَسولي الذي سألني إبراهيمُ خليلي وابنُهُ إسماعيل، أنْ أبعثه من ذرّيتهما.[٧٤]

---

٦٨. سورة البقرة، الآية : ١٥١.

٦٩. سورة الجن، الآية : ٢٦ و ٢٧.

٧٠. سورة التكوير، الآية : ٢٤.

٧١. سورة البقرة، الآية : ١٥١.

٧٢. سورة البقرة، الآية : ١٢٨.

٧٣. سورة البقرة، الآية : ١٢٩.

٧٤. أبو جعفر الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، المرجع نفسه، ج ٣، ص ٢٠٨-٢٠٩.

سادسا : معرفة الله سبحانه عز وجل

إن معرفة الله عز وجل هي الهدف الأعلى من أهداف التصوف الإسلامي، يرتكز الإسلام في إصابته ويؤكدعلى المسلم يدركه لأنه تعالى قد خلق الإنسان بهذا القص فإنسانيته يتوقف على إنجازه بما أنه إن حصله فهو الإنسان المقصود وإن فشل فسقط وهو كالأنعام. فقد فصل الله سبحانه وتعالى العارفين به عن الذين ما عرفوه بقوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ.[٧٥]

والمعرفة بالله تعالى عرفان الحق سبحانه بأسمائه، وصفاته، ودوام العبدفي السر مع الله تعالى مناجاته، وصدق رجوعه القائم كل لحظة إليه تعالى وصيرورته.

سابعا : إظهار الإسلام

إظهار الإسلام على الأديان الأخرى هو الهدف الذي عينه الله القادر تعالى للمسلمين كما مر الشاهد القرآني عليه سابقا لكي يتحقق توظيد سيطرته القيادية على جملة العالم للقيام بالنظام العالمي الجديد المنتهي إلى الأمن والسلام الشامل على مستوى القومية والدولية معا. ذلك لأن الله تعالى قد أمر السلمين مهيمنا مدبرا على جميع الأمم بقوله تعالى : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ. [٧٦]

بذلك قد خولهم الصلاحية والأهلية للقيادة العالمية والسيادة الشمولية فإنهم الذين سيتحقونها لا غير والأقوام الأخرى لهم لا حق فيها؛ وعليه مجردا الشاهد العادل سائر التاريخ الإنساني مما أن الإسلام أو حد بين الأديان في التأكيد على الوحدانية الإنسانية بقوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ.[٧٧]

طبقا لهذا فالإسلام يركز في الجمع هو الفعل الإلاهي ويدفع التشعيب هو الفعل الإنساني بينما تمثل الأمم الأخرى التشعيب فتنتهى إلى عبودية ما دون الله تعالى والتشتت والإفتراق، والجمع يتطلب الإنصراف إلى الله للهداية في جميع شؤون الحياة مما قد رتب الإسلام نظام الأخلاق والآداب الذي إذا اقتفى به أحد لصار التشعيب خا١عا للجمع ينجم عنه نشاط

---

٧٥. سورة الزمر، الآية : ٦٧.

٧٦. سورة البقرة، الآية : ١٤٣.

٧٧. سورة النساء، الآية : ١.

اجتماعي يؤدي إلى القيام بمجتمع يسوده الأمن والسلام فإذا بسط هذا المجتع على مستوى العالم جعله المهد للسلام الشاملي والأمن العالمي، وقد شهدت القرون المنصرمة هذا السلام والمن خلال السيطرة الإسلامية على العالم. فلما انهارت السيطرة فسد أمن العالم وسلامه كله لغلبة القوات التشعيبية.

الحاصل

إن انتشار الإسلام في العالم بالداعية ومبلغ الصوفي، وأشهرمنهم أبو هريرة، سلمان الفارسي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، أبو عبيد الله بن الجاره رضي الله عليهم أجمعين وغيرهم. وبخاصة إذا ننظر في قارة الهندية نجد بينات فيه بذلك. هذا إنما الصوفية ما زالوا يحاولون تبليغ الإسلام إلى أقصى البلاد العامية وبه نشر الوحدة الإنسانية بين صفوف الناس حتى يدربون على الأخلاق المثلى والآداب العليا جماعات أقامت المجتمع السلامي وسلطت سيطرة الإسلام على العالم فكل ملك من الملوك كان على الرباط بصوفي إراداة أو قبولا. فلولا جهود الصوفية لإتمام مقصد الإظهار الإسلامي لسقط الملوك وانحطت القوة الإسلامية. وأن العبد يجهل مواقع السعادة، والنفس الجاهلة تتكاسل عن الطاعات لجهلها بأن سعادة الدارين و طاعة الله والاستسلام لأمره ونهيه بالتزكية النفس، قال ابن المبارك رحمه الله : إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوا، وان أنفسنا لا تكاد تواتينا فينبغي علينا أن نكرهها. فلطاعة الله عز وجل. حلاوة تتذوقها القلوب إذا باشرتها، وهذه الحلاوة تقصر دونها العبارة، ولا تحيط بها الإشارة قال بعضهم: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا. وإن الناس لا يتزكى النفس إلا بحصول العلم التصوف الإسلامي صحيحا. فلذا قال إمام أنس بن مالك رحمه الله تعالى لتأكيد حصول العلم التصوف: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه، فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق.